

من ثمرات الطابع



الشعر الحديث يهيم في وادي الجذب الروحي*

عليه جمع منهم فخر على وجهه يسيل دم
الشهادة من حوله، وتردد السهوب صوت
تكبيره.

وصوب الأعداء مدافعهم بعد ذلك إلى مآذن
القرية فذكروها، وفرح الجند الذين رضعوا
مُهْل الشيوعية وتغذوا برقُومها ورفلوا،
وظنوا أن صوت الحق لن يرتفع بعد أن
تهدمت مآذنه، وأن الرباط قد أصبح خاليا

محمد عبد الرحمن

الشامخ*

■ ■ ■

■ إن موضوعات الأدب الإسلامي واسعة
كسعة الخيال الإنساني الذي يحلق في
الأعالي، ولا يسف نحو الوهاد والسفوح،
عريضة كعرض الكون الذي خلقه الله، وهي
عميقة مثل عمق الحياة التي أبدعها الله،
والأديب المسلم يعلم بأن الله لم يخلق
السموات والأرض وما بينهما باطلا، وأن الله
لم يخلق الإنسان إلا ليرقى إلى مقام عبوديته،
ويبلغ منزلة الخيرية، ولذلك فإن أدبه ينطلق
من هذه الحقيقة فيتنبك طريق الباطل، وينأى
بنفسه عن اللهو واللعب، ليتلاءم صوته مع
رسالة الكون، وليتقق سعيه مع غاية الخلق
وحكمة الوجود.

وإذا كانت بعض نماذج الأدب الحديث قد
أصيبت بالخواء الروحي والوهن الخلفي، فإن
قضايا الإنسان المسلم ما زالت تقف بباب
الأديب العربي الموهوب تدعوه لمعالجتها،
وتعتب عليه لإعراضه عنها، ومهادنته
لأعدائها، وتتوالى الأحداث في عالم الإسلام،
وتتعاقب عليه الكوارث، ولكن هذا الأديب
الكبير الموهوب صادف عنها، مشغول
بإشكال هامشي من شكاول الفكر الأوروبي
ومظاهر الترف فيه.

وكما كان نداء فتاة البوسنة لمعتصم اليوم
وشاعره أبي تمام موضوعا خصباً لخيال
الشاعر المبدع وموهبة الأديب، فإن هناك
موضوعات كثيرة أخرى تتصل بجهاد
المسلمين وصراع المستضعفين فيهم من أجل
البقاء في ديار جاس الأعداء خلالها، وانتكح
الغاصبون حرمتها.

أما رأى الشاعر العربي المعاصر الكبير ذلك
المجاهد الشيشاني يرباط على مشارف قريته
التي اكتست بكثبان الثلج؟ حتى إذا ما نادى
مآذن القرية تكبر الله، تلفغ برداء أبيض يشبه
الكفن ليتخفى به عن أعين العدو، وليجد في
روحه عطر الشهادة وأريجها، توارى المجاهد
خلف شجرة ثلجية، وقام بين يدي ربه يصلي
صلاة المرباط، ويرفع إليه ضراعة المضطر
وابتهاله، وعاد إلى رباطه وقد اطمانت منه
النفس، ولامست نسمات الشهادة جبهته التي
علقت بها حبات من الثلج، ولم يمض إلا وقت
قصير حتى دهم العدو قريته فبقي صامداً
في خندقه، يحصد من تقدم من جند العدو،
حتى إذا أعياهم شأنه وأهمهم أمره انقض

حين ثوى المرباط مخرجاً بدمه، ولكن هالهم
أن سمعوا مآذن القرية المجاورة يتعالى فيها
النداء بالتكبير والتهليل، وفزعوا عندما رأوا
أسلحة المرباطين تتناوشهم من كل صوب. لقد
توهموا كما توهم آباؤهم بالباشفة من قبل أن
هذه البقاع من بلاد الإسلام قد أصبحت بعد
غزوهم أرضاً سبخة لا تنبت إلا حسك
الشيوعية، وصارت رحم شؤم لا يلد إلا
مسخاً من مسوخ البلشفية.

وما علموا أن الإسلام شمس تشرق في
سما القوم فلا تغيب عن أعينهم، وغيث
مبارك ينزل بأرضهم فلا يبرح الخصب
قلوبهم، وقد تتصاعد في الأفق غاشية من
غبار أو دخان فتحجب نور الشمس عنهم،
وتأتي بشيء من القحط إلى ديارهم، ولكن
نور الإسلام نور علوي يشع فلا ينطفئ أبداً،
وبذور الإيمان تمكث في النفوس مترقبة
متربصة، حتى إذا ما زالت الغاشية،
وانقشعت الغمة تجلت أنوار الإسلام،
فعانقتها القلوب المؤمنة الظامئة، وتنزل الغيث
في الأرض المجيدة فاهتزت وربت، وانتشر
في أرجائها الخير، ونما في ربوعها زرع
الإيمان.

أما دم الشهيد المرباط فقد رشفت أرض
الرباط من رحيقه، وتعطر التراب بندها ليكون
للأجيال المسلمة المقبلة ينبوع خير ينبت
الشجر الطيب في شاطئه، ويرتوي دوح
الإيمان من معينه.

هذه صورة من الصور الإيمانية الحيوية
المشرقة التي تمتد أبعادها وتتسع أمادها
لتكون مادة إبداعية تقتنصها مخيلة الشاعر
الموهوب، وتصوغها ملكة الكاتب المقتدر.
والمسئولية الأدبية لا ترضى للشاعر أن يكون
نادباً يذرف الدمع، ويستدر الشفقة، ولكنها
تريد من الكاتب والشاعر أن يستخدم ما
شاء من أدواتها الفنية الإبداعية في معالجة
هذه القضايا الإنسانية الحيوية، فالمجال
مفتوح أمامهما كي يبلغوا في ذلك أقصى مدى
يلبغه فن الكتابة والشعر، مادامت هذه الفنية
لا تستخدم من وسائل التعبير وعناصر الفكر
إلا ما يبلغها إلى بناء شخصية الإنسان
العربي المسلم بناء روحياً خلقياً يهبه القوة
في مواجهة أعدائه، ويعصمه من أن يصيبه
اليأس والقنوط بالوهن والليونة فيصبح
طعاماً سائغاً للطامعين، فليس رزء أن
يستشهد أفراد من المرباطين لأن في

استشهدهم حياة لجند الإسلام، وليس غبنا أن يهدم الأعداء المدن والقرى في ثغر من ثغور الإسلام لأن في هذه يقظة وعبرة لمن الإسلام وحواضره. ولكن الرزء يحل عندما تنبض القلوب بالجن، ويسكن الوهن في النفوس، والغبن يأتي عندما تموت روح الجهاد في حواضر الإسلام، ويصاب عقل المسلم بالتذبذب والإمعية فيتخلق بخلق أعدائه. ويتمذهب بمذاهبهم الفكرية، فلما منه أنه بذلك يواكب ركبتهم، ويقف في صف يماثل صفهم، والتاريخ يشهد بأن التابع يصبح ظلا للمتبوع، وبأن التقليد لا يزيد المرء إلا تأخرا في الصف وتعثرا في المسير.

إن المد الإسلامي السلفي الراشد يسير في طريق صاعد يخالف سبيل الأعداء، ولكن بعض المشهورين من أدباء العربية يتجافون عن هذا الطريق في إنتاجهم الأدبي، ويتلقفون ما تقذف به الريح الأوربية النكباء من رؤى فكرية واجتماعية وخلقية، وقد كانوا بهذا عنصرا من عناصر التخذيل، وعاملا من عوامل الجزر المعنوي والضعف الخلقي.

وإذا كانت الكلمة سلاحا معنويا روحيا، فإن من حق القارئ العربي أن يسأل عما أسهم به صناع الكلمة في الحروب التي خاضتها أمتهم العربية في زمنها الحديث، لقد هب عدد من الشعراء البارزين يسلون الأقلام، ففرقت رايات الشعر تمجد التراب العربي، وتسبح بحمد الوعد الاشتراكي، وتناشد المحاربين أن يبذلوا النفوس في سبيل هذا المجد، وأن يقدموا الدم المسلم قربانا لهذا الوعد، فتب النداء، وانتكست الراية، وتالت الهزائم، وانتهبت أطراف من الأرض، لأن التراب العقيم لم ينبت للأمة العربية زادا روحيا معنويا، ولأن سراب النظريات السياسية الأوروبية لم يقدها إلا إلى موارد الهلكة.

كان الأديب العربي البارز خلال هذه المعارك رائدا يرتاد لأهله مستنقع الفكر المادي الأسن، وينقل لهم ما التقطته أذنه في مقاهي أوروبا ومنتدياتها من أصوات مردت على التجديف، واحتكمت في عقائدها إلى أهواء البشر، وكان حفيا بما لمحته عينه على قارعة الطريق في أوروبا من مظاهر السلوك والأخلاق. لم يشاقق قلم هذا الأديب دين الإسلام، ولكنه أراد أن يفصل ما بينه وبين الكلمة الأدبية من وشيجة، وأن يحصره في

المساجد ويقيه قابعا في الزوايا كما فعل أهل أوروبا بدينهم من قبل.

وظن هذا الأديب العربي أن في هذا خلاصا للأمة من محنتها، ونجاة لها من داء التخلف الذي حاق بها ولكن الأمة العربية الإسلامية لم تصرم سوى حصاد الهزيمة حين خلبها الظن، ولم تجن إلا ثمار النكسة عندما كذبها الرائد وأضلها الوهم.

ومن عجب أن الأديب العربي الكبير ما زال معرضا عن استخدام مبادئ الدين الحق في بناء أمته، مشيحا بوجهه عن اتخاذ منهجه طريقا إلى إنقاذها من كبوتها، وإلى بذر عقيدة النصر في نفسها، يصنع هذا وهو يدرك ما أصاب تجربة العقود الماضية من تباب، ويرى ما تقعله العقيدة الإيمانية المسلمة في نفوس فئات قليلة مستضعفة من أهل الثغور الإسلامية من عزة إيمانية تتحدى الكفر والطغيان، ومن صمود يجبهه امبراطوريات القهر والاستبداد.

إن هذه الفئات القليلة المؤمنة لا تموت بل تستشهد، ولا تولى الأديبار، ولكنها تتحرف للقتال، تزودت بإيمان رباني أصله ثابت وفرعه في السماء واعتصمت بالعقيدة الإسلامية التي فطر الله الناس عليها، فلم تفلت حبالها عن أكاب الأدب، ولم تدنس معينها أهواء البشر.

وخلاصة القول إن الأدب العربي أدب أمة مسلمة. والمسلم يشهد بأن الله لم يخلق الكون عبثا. فقد أبدع صنعه، فأجاد نظم، وأحكم قوانينه، ولم يستثن الإنسان من هذه السنن الكونية، فلم يجعل له فلكا يسير بنظام يخالف هذه النظم، ولم يرض له - وقد خلقه في أحسن تقويم - أن يكون أضل من الأنعام فيعيش عيشا سفليا تتحكم به الغريزة، وتوجهه المتعة الآنية، لقد خلقه الله بشرا سويا لكي يعمر الأرض بحسب شريعته، وجعل له ذاتا روحية مدركة تسبح في ملكوت السموات، فتهديه إلى أن يعبد الله وحده، ويتخذ لنفسه من المناهج ما ارتضاه له.

هذه عقيدة المسلم، وتلك نظرته في كنه الحياة وغاية الخلق، وبما أن الأدب نشاط إنساني، فإنه لن يكتب له السداد ما لم يهتد بهذه النظرة ويسع إلى إدراك تلك الحقيقة وإلى الإيمان بتلك الغاية، وعلى الأديب المسلم ألا يمالئ أقواما استحوذت عليهم طبيعة

الأنعام فاستخذوا الأدب أداة غواية تفسد ولا تصلح، وتقوض ولا تبقي، إن عليه أن يستجيب لنداء الفطرة السوية التي فطره الله عليها، وأن يعيش في وئام فكري مع مبادئه الإسلامية التي ارتضاها الله له، وأن يقتطف الكلمة من تلك الشجرة الطيبة التي امتدت جذورها في أعماق الأرض العربية، وسمت أغصانها في الآفاق تجدد مبدع الكون، وترتشف النفحات النورانية من ضياء الوجود، إن في هذا للأديب العربي المسلم ما يغنيه عن أن يستمع للأصوات البيغوية التي لا ترضى عن اللغة العربية إلا إذا علت القبعة هامتها، والتقت ربطة العنق حول رقبتها، إنها ليست صوت جدة وابتكار، ولكنها نداء إلى تأصيل التقليد وطمس الهوية، ودعوة إلى معايشة الخذلان الثقافي، والرضا بالإمعية الفكرية.

ويتراءى للكاتب أن في العالم الأوروبي نهريْن ثقافيين، أما أحدهما فنهر واسع عميق لا يدرك غوره إلا سباح ماهر نشأ في ضفافه، وتربى في ظل دوحه. وأما الآخر فنهر صغير ضحل تكثر من حوله المستنقعات، وتعلو سطحه الطحالب، وتتفقق في قعره الضفادع ولعل هذا النهر الضحل هو المورد الذي يرده سماسرة الأدب العربي الحديث، والمنقع الذي يجلبون لقومهم ما أسن من مائه، فهل على القارئ العربي من ضير إن أعرض عن بضاعتهم، وهجر منتدياتهم؟ ولقد بدأت فئات مؤمنة في مشرق البلاد العربية ومغربها تمج ما اجتلبه هؤلاء السماسرة من أدب المستنقعات، وتنبذ ما دعوا إليه من أدب التقويض والتبعية.

* هذه واحدة من سبع مقالات نشرها الأستاذ محمد عبدالرحمن الشامخ في الملحق الثقافي بجريدة الرياض على مدى سبعة أسابيع متتالية تحت عنوان عام هو: الشعر الحديث يهيم في وادي الجذب الروحي، وهذه كانت المقالة الأخيرة، وقد نشرت في العدد ١٠٣٩١، الخميس ٢٤ رجب ١٤١٧هـ

* محمد الشامخ: أديب وناقد سعودي، تخرجت على يديه أجيال كثيرة من الطلاب في كلية الآداب، بجامعة الملك سعود، له مؤلفات عديدة، ومقالات كثيرة في الصحف والمجلات.

فحة قصيرة..

واحدة، وكثيرا ما كانت تتناثر التعليقات، أو تعلق الضحكات، أو ترتفع الأصوات، مؤيدة لفكرة ما أو مسفئة لها. على أن الموضوع الرئيس الذي كان يطغى على كل حديث وفكرة هو الشكوى من هموم الحياة، وارتفاع الأسعار، وعجز الرواتب عن تأدية وظيفتها في حياة حرة كريمة وكان حديث الجميع يدور حول هم واحد، هو أن يتمكن الفرد منا من ادخار ثمن دار يشتريها إذا رجع إلى بلده.

وكننت دائما أبادي استغرابي من السرعة والعجلة التي يريد كل واحد أن يحقق بها طموحاته، وكننت أقول: إننا يجب أن ننظر إلى الأمور نظرة واقعية، فالإنسان يصعد السلم درجة درجة، ولو قفز دفعة واحدة لوقع واندقت عنقه، وما على المرء إلا أن يعمل ويتوخى الرزق الحلال، وما كتبه الله له سيناله، ولننظر كيف خلق الله عز وجل السموات والأرض في ستة أيام، ولو أراد أن يقول لها كوني لكانت، لكنه أعطانا درسا يجب أن نستفيد منه في حياتنا.

لم تكن أفكاري تلقى القبول دائما، بل كثيرا

ما أنكر علي بعضهم أقوالي، وحاول تسفيهها، متسائلا إلى متى سنبقى متحمليين آلام الغربة والبعد عن الأهل والوطن، وإذا كان ما نقبضه من أجر لا يكاد يكفي مصروفنا هنا، ونحن لا نكاد نستطيع ادخار القليل فمعنى ذلك أننا سنعيش ونموت مغتربين.

وكم كان يغطيني ويثيرني ما كنت أسمعه من بعضهم حين كان يصير على أننا يجب أن نحصل على المال بأية وسيلة ومن أية طريق.

ولكن ثورتي مع توالي الأيام - بدأت تضعف شيئا فشيئا، وذلك من كثرة ما تردد على سمعي هذا الكلام، حتى أصبح كلاما عاديا أو شبه عادي، كنت كلما احتد النقاش وتصارعت الآراء والأفكار أحس أن هناك شيئا غريبا يبعث الشك والحذر في نفسي، فقد كان أحد الموظفين معنا واسمه أحمد لا يتكلم أبدا، ولا يبدي رأيا ولا فكارا، ويمتنع عن المناقشة، ولا يفصح عن اعتقاده، بل كان يكتفي بالاستماع وعينه تجولان ببطء

■ حين وقعت عقد العمل في المؤسسة مديرا للمبيعات، لم يكن في ذهني سوى أمر واحد، وهو أن أعمل بشرف وجد وإخلاص، وأن أكسب رزقي حلالا لا يشوبه حرام. ذلك أن أكثر حديث والدي معي قبل سفري للعمل خارج البلاد كان عن الأمانة، وضرورة الالتزام بها، وأن الأمانة

تاج على رأس صاحبها، وإذا شاب الأمانة أية شبهة فإن سمعة صاحبها تسقط كما تسقط سمعة الفتاة إذا لاكتها الألسن، وقد أيقنت أن الأمانة تقتضي مني أن أعطي عملي كل ما أستطيع من جهد.

ومن هذا اليقين كان منطلق عملي كله، فقد كنت أحضر صباحا ملتزما بوقت الدوام لا أنتقص منه شيئا، وكننت أعطي عملي حقه من الرعاية فأسعى جهدي إلى إرضاء الزبائن وتأمين طلباتهم، بما يؤمن لصاحب المؤسسة أكبر ربح ممكن حلال. وما كننت أغادر المؤسسة مساء إلا حين أتيقن أنه لن يحضر زبون واحد بعد ذلك، وأكون قد نظمت أوراق مبيعاتي، وحيات كشوف حاجات

المؤسسة وما نحتاج إلى شرائه في اليوم التالي.

كنا في المؤسسة وفي قسم المبيعات أربعة موظفين، وثلاثة عمال مساعدين، ومنذ بدأت العمل كننت أعامل زملائي والعمال بكل احترام وأدب ولطف، وأتخرج أن أساء إلى واحد منهم مهما بدر منه، وقد قام بيني وبين الجميع مودة وتكافؤ سريع، واحترام متبادل، وكثيرا ما كنا نجلس إذا لم يكن لدينا عمل؛ فنحدث ونتناقش، ونتبادل الآراء والأفكار، أو نمزح ونضحك ونحن نشرب الشاي. وكان كل واحد يطرح همومه ومشكلاته، ويتحدث عما يحس ويعاني، وكانت سمة الحديث الرئيسية الشكوى من الغربة، ومن إرهاقات الحياة والمعيشة وتكاليفها.

واتسعت المعرفة والصداقة لتشمل العاملين والموظفين في المحلات والمؤسسات المجاورة، وتوثقت عرى الصداقة بين الجميع، فإذا حان وقت استراحة الظهيرة أحضر كل منا طعامه، وجلسنا ناكل كأننا أسرة



بقلم: محمد سعيد المولوي

التالية؟! سيأتي الموت يا صاحبي، وسنترك كل شيء هنا، ونذهب إلى هناك، إلى الدار الآخرة لنحاسب على ما كسبنا، ومن أين سنحصل على المال يوم القيامة لفرده على أصحابه؟!

أم تريدني أن أقول لكم يجب أن نبقى ملتزمين بالأمانة حريصين على الرزق الحلال.. وهذا الواقع الذي أعيشه ماذا أصنع فيه؟! لو أن أمي مرضت ما وجدت أجر الطبيب ولا ثمن الدواء. وهؤلاء الأخوات البنات الثلاث اللواتي حملني أبي همهن ومضى إلى ربه مستريحا من عناء هذه الدنيا، لو أن واحدة منهن خطبت فمن أين أؤمن لها جهازها وما تحتاجه العروس؟!

قلت: يا أخانا إن الله قدر الأرزاق للعباد بحكمته التي لا يمكن أن ندرکہا وبهذه الحكمة أقام السموات والأرض، ومهما بلغنا من ذكاء فإننا لن نكون قادرين على معرفة إرادة الله فيما وهب عباده من الرزق. ألم يقل: «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»، فكم من فقير قد ضمن الجنة بفقره، وكم من غني ضمن النار بغناه، والأمر أولا وآخرًا بيد الله ثم بيدنا فيما نصنع، ونحن في موطن ابتلاء واختبار، والله يرى أعمالنا ويثينا عليها أو يؤاخذنا بها.

قال أحمد: أنا معك فيما ذكرت، وليس عندي شك في ذلك، ولكن حديثكم المكرر أثار في نفسي سؤالاً وهو: هل إذا اشتريت بضاعة للمؤسسة بسعر السوق وبذلك جهدي في استخلاص أرخص ثمن لها من البائع، ثم أعطاني البائع عمولة وأخذتها لنفسني، هل يكون هذا المال رزقاً حراماً؟!

قلت بالطبع هو مال حرام.

قال: ولم؟!

قلت: أنت تأخذ هذا المال مقابل أي شيء صنعت؟!

قال: أولاً أنا أبذل كل جهدي في الحصول على أقل ثمن للبضاعة، فإنا لا أخذ هذا المال مضافاً على ثمن البضاعة كما يصنع حسن، وثانياً أنا أشتري بأقل الأسعار الموجودة في السوق، فلا أفرط في حق صاحب المؤسسة، وثالثاً هذا المال يعطيني إياه البائع حتى أبقى رزونه، وأتردد عليه دائماً فلا أشتري من غيره.

قلت: هذه القضية لم تختلف مع هذه التقنيات التي تقدمها، فبذلك قصارى جهدي للحصول على البضاعة بأرخص الأسعار أمر طبيعي تفرضه عليك الأمانة لعملك. وكونك تشتري بأقل الأسعار الموجودة في السوق ليس أمراً مطرداً، إذ هذا يقتضي إحصاء لكل الأسعار المعروضة للسلعة، وما أظنك تفعل ذلك، وحجتك الثالثة تبطل حجتك الثانية فإن التاجر قد يعطيك اليوم بسعر رخيص ويعطيك العمولة لتصبح رزونه، ولكنه في مرات قادمة وبعد أن تطمئن إليه يمكن أن يبيعك بالسعر الذي يريد وبأكثر مما في السوق، ويستخلص منك ما كان قد قدمه إليك. أنظن التاجر أبله ليقدم لك المال دون منفعة تعود عليه. إن التجار من أذكي وأبرع الناس، وهم الأقدر على استخلاص أموال الناس من بين أيديهم برضاهم، وأنت الآن تمارس بعض التجارة وترى بعينك، وفي الواقع كيف تكون التجارة؟ فكيف تخدعك هذه الحجج التي توردها؟!

ثم قل لي يا أحمد: بأي حق أنت تأخذ هذا المال.. هل نسيت ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحد عماله على الصدقة، حينما جاءه بالمال وقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي؟!

من وجه إلى وجه، وبجمود ظاهر ثم تطرقان في الأرض.

كان صمت أحمد يبعث الريبة في نفسي، وكنت أسأل ذاتي، أيسكت أحمد لخوفه من أن يكون هنا من ينقل الكلام إلى صاحب المؤسسة، فهو لا يريد أن ينقل عنه كلمة يمكن أن تسيء إليه، أم أنه يسكت لأنه عاجز عن النقاش وإبداء الرأي، أم لأنه يرى أن لا جدوى من الكلام.

كانت هذه الأسئلة تراودني كلما احتدم النقاش، وكنت أتحين الفرصة لأن ألقى أحمد وحيداً حتى أسأله عن سر صمته، فلم أشأ أن أسأله أمام الآخرين؛ حتى لا أسبب له حرجاً، حتى كان يوم ذهب الموظفان الآخريان لإحضار بعض البضاعة من السوق وبقينا وحيدين، واغتنمت الفرصة فطرحته عليه سؤالاً مباشرة قائلاً: يا أحمد أنا أستغرب وضعك، فعلى كثرة النقاش والكلام والتعليق لم أسمع منك كلمة واحدة، ولم تبد رأياً، ولم تناقش فكرة. بل أنت تكفي بالسمع والنظر فقط، فما هي قصتك؟

نظر أحمد إلي وابتسم وقال وهو يطرق برأسه: لا شيء.. لا شيء.

قلت: كيف ذلك، ما بقي أحد إلا وتكلم، وقال وعلق وصرح، إلا أنت، لم أر منك إلا الصمت، والصمت يخفي وراءه دائماً شيئاً، فما هي حكايتك؟

قال: لا شيء.. دعني وهي.. ويكفي ما بي.

قلت: أتشك في صداقتي وأخوتي لك؟

قال: لا.. ولكن دعني فذلك أفضل.

قلت: حدثني عن همومك، فأنا أحس أنك مهموم، والإنسان قوي بأخيه، وما يعجز المرء عن إيجاد حل له قد يجد له عند الآخرين حلاً.

قال: هل تعلم أن نارا تستعر في داخلي وأنتم تتكلمون، وأن الأفكار تتصارع في ذهني، وأحس أن رأسي يكاد ينفجر، وأحس باضطراب نفسي كبير. أترى زميلنا حسن الذي يتكلم عن الشرف والأمانة والرزق الحلال، إنني أعلم ومنذ زمن بعيد أنه يسرق من مال المؤسسة، فهو يشتري حاجات المؤسسة، ويزيد في قيمة كشف البضاعة، ويتقاضى عمولات وحسومات، ويضعها في جيبه، ولا يردّها على المؤسسة، ثم يجلس ليحدثنا عن الشرف والأمانة وذلك ليغطي وضعه السيئ.

ما تريدني أن أصنع وأنا أسمع هل أقول له إنك كذاب ولص؟!

بالطبع إنه سيكذبني، وهو أقدم مني في المؤسسة، وأثبت قدماً، فهو قريب الشريك الآخر فيها، ولو اصطدمت معه فسيكون جزائي الطرد من المؤسسة. وأنا تركت أما وثلاث أخوات في بلدي، وجئت هنا على أمل أن أكسب مالا وفيرا يؤمن حاجات أمي وأخواتي، ويمكن أن يفتح لي طريق المستقبل. وأنت تعلم مقدار الأجر الذي أقبضه، إن أرسلته إلى أهلي حرمت نفسي، وهو لا يكاد يكفيهم وإن أبقيته معي فقد حرمتهم لقمة العيش، وهن نساء لا يستطعن العمل. فأنا مضطر لتوزيع دخلي بيني وبينهم ونعيش جميعاً على الكفاف، وما حصلت من حياتي سوى الغربة والآمها. وأنا دائماً مشغول البال نحو أهلي ومستقبلي. وأخاف إن تكلمت أن يكون حديثي سبب قطع رزقي، وحين تتحدثون عن المال وجمعه والحلال والحرام أجد نفسي بين نارين: نار الصبر على الرزق الحلال، ونار الرغبة في المال، وتأمين المستقبل، ولو كان المال حراماً. وأنا لو أردت المال الحرام لحصلت عليه بأيسر سبيل، إذ يكفي أن أهدد «حسنًا» بإفشاء سره، حتى أحصل على قسم مما ينال من عمولات.

أعرفت لماذا أظن ساكتاً، فماذا يمكن أن أقول؟ هل أقول لكم تعالوا نسرق جميعاً، تعالوا لنخون من آمننا على ماله ورزقه، حتى نؤمن لأنفسنا البيت والزوجة والسيارة، ونعيش في رفاهية وسعادة؟!

ولنفرض أننا صنعنا ذلك وحصلنا على ما نريد فما هي الأحداث

بلده وتحمل آلام الغربة من أجل العمل، لذا فهو يفرض عليه الراتب الذي يريده، متيقنا أنه لن يستطيع الرفض، وهذا الراتب لا يكافئ الجهد الذي يبذله العامل بل هو أقل.. لذا إن استطاع أحدهم أن يحصل على فرق الراتب أخذه، ولو كان ذلك عن طريق زيادة أسعار البضاعة على قائمة المشتريات، أو عن طريق أخذ العمولات. وبذلك يكونون قد حصلوا حقوقهم الملهومة.

كنت أحس ومع توالي الأيام بضغط نفسي قوي، وصراع عنيف في داخلي، فقد كنت جاهدا أحاول التمسك بمبادئ وأخلاقي في البيع وأحاول التمسك بمبادئ وأخلاقي في الشراء. وكنت أخشى أن أضعف أمام أقوال الآخرين، فقد كانت أقوالهم تتخرف في عقلي ونفسي، وتحاول إضعاف عزيمتي ومقاومتي، وكنت أحس بنفسي تضعف أحيانا فأعود عليها بالتائب، وأحاول شحنها بمزيد من المناعة والقوة، وتقويتها بمزيد من العزيمة والصلابة، وكنت أعلم أن الإنسان إذا سقط مرة فسيكون سقوطه مرات عديدة أهون وأسهل. ومع ذلك فقد كنت متأكدا أن ضغط الظروف المادية قوي جدا، وأنه خير حليف للانحراف والخروج عن المبادئ والمثل.

ووجدتني مرة بعد مرة أعود إلى ما طرحته من حجج وأفكار، فأستعيدنها في ذاكرتي، وأقابلها بما طرحه أحمد والآخرين من آراء معارضة، وأحاول أن أجد قرارا حاسما أنهي به المشكلة، لكن كفة الأفكار المتضاربة كانت تعلق وتهبط من غير توازن، فأظل مضطربا قلقا دون أن أستطيع وبشكل جازم أن أوصل مبادئ وأفكاري.. وكان إحساسي سليما لا تشوبه شائبة، لكنني كنت أبحث عن حجة ودليل لا يتطرق إليهما الشك.. بل كنت أريد أن أجد الحجة التي أتغلب فيها على حجج الآخرين، وكنت أعجز عن ذلك لأن الآراء المتضاربة كانت تسبب لي صداعا، فأترك النقاش الذي كنت أديره مع نفسي، على أمل أن أتابعه مرة أخرى.

وجاء يوم لست أنساه ما حييت، فقد احتاجت المؤسسة إلى بعض البضائع، وذهبت إلى السوق، واستعرضت الأسعار في عدة محلات، ووجدت أفضلها وأرخصها، فاشتريت ما أحتهج من البضائع، وطلبت من البائع أن يهيئها ويأمر عماله بحملها إلى السيارة، ثم مدت يدي بثمان البضاعة إلى صاحبها.

أمسك الرجل المال وتفحصه وعده ثم اقتطع منه قسما ودسه في يدي وقال: لا تؤاخذنا كان بودنا أن نقدم لك فئجان شاي فما استطعنا هذا ثمن فئجان الشاي هدية من المحل لك.

جمدت في مكاني، وتسمرت عينا في وجهه، وأصابني ذهول مصحوب بدوار تملكني لشوان، ولم يخرجني منه سوى قول الرجل وهو يبتسم: نأمل أن نراك دائما فنحن في خدمتك، والمحل محلك.

كان المال في يدي، وكنت أحس أنني أحمل جمرة متقدة تلهب يدي، وتواردت في لحظة واحدة على ذهني كل الأفكار والحجج المتضاربة، التي ناقشتها أو سمعتها أو طرحتها، واختلطت على الأمور، فما عدت أعرف ماذا أصنع، وأخرجت في وقوفي، والرجل ينظر إلي مبتسما، فلم يكن من المعقول أن أبقى واقفا، فتحركت قليلا، ونظرت فوجدت يدي قد أصبحت في جيبي، وأن المال قد استقر فيه، ووجدت يدي تمتد إلى الرجل مصافحا ومودعا.

وامتطيت السيارة، كنت مذهولا لا أكاد أسيطر على نفسي ولا على السيارة.. كيف حصل هذا؟! أية قوة هذه التي غلبتني على نفسي فدفعني إلى قبول المال، هل صحيح أنني أنا أخذت المال من الرجل؟!؟

فأنت تعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أنكر على الرجل أن يقبل الهدية، وأن يأخذها لنفسه، وبين أن هذه الهدية إنما كانت بسبب وظيفته وعمله وليست لشخصه، فهي لم تقدم له لذاته، وإنما قدمت إليه لأنه يقوم بجمع الصدقات، فهي ليست من حقه، ولا تنس أن الهدايا من الرشا، فكثير من الناس قد يكون له حاجة لدى آخر فيقدم له هدية حتى يحمله خجلا على تأمين حاجته، وهذه الهدية لو فكرت فيها لرأيت أنها رشوة مستورة وقديما قالوا: «أطعم الفم تستح العين».

فهل البائع يجبك لشخصك، ويريد أن يكرمك، لأنك فلان من الناس؟ بالطبع لا.. إنه شرك يا صاحبي.

قال أحمد: هناك فرق بين قصة صاحب الزكاة وبين ما نحن فيه، فذاك لم يكن يبذل جهدا في الحصول على أفضل الأنواع والأسعار، فما يحصله من مال أو كراع محدد ومعروف، رسم الشرع حدوده. أما هنا فنحن أمام جهد شخصي قائم، نبذله بأنفسنا، ويمكن أن يفكر الإنسان أنه يستحق التعويض عليه.

قلت: يا أحمد هذا تلبس من الشيطان.. وهنا اضطرت إلى السكوت فقد دخل حسن، وما كنت أريده أن يسمع حديثنا.

صحيح أنه قد انقطع الحديث بيني وبين أحمد لكن حديثه ظل يراودني كلما خلوت إلى نفسي، كنت أحس أن هناك خلا في حجة أحمد، وأنه ليس على حق، لكنني كنت محتاجا إلى بعض الصفاء الذهني لأجد هذا الخلل.

كنت أحس أن القضية واحدة، وإن اختلفت فيها بعض الصور، لكن الشيء الذي كان واقرا في نفسي أن هذا المال يناله الإنسان من غير جهد يبذله، وأن الموظف الذي يشتري بضاعة لمصلحة المؤسسة التي يعمل فيها إنما هو وكيل عن صاحب المؤسسة، فكل ما يصل إلى يد هذا الموظف من خير يجب أن يعود إلى الأصل. لكن بعض الهواجس من الأفكار التي طرحها أحمد والتي كنت أسمعها من زملائنا العاملين عند الجيران كانت تحفر في دماغي، محاولة أن تثبت أقدامها، وأن تثبت بنفسي، فنشوش علي أفكار، وتضعف من مقاومتي.

وتتابع الحوادث سريعة، فإني الركود التجاري الذي كنا نحس به منذ زمن راح يزداد يوما بعد يوم، واضطر بعض أصحاب المؤسسات إلى تخفيض رواتب العاملين لديهم، ونالني ما نال الآخرين من تخفيض فآلني، وبعث في نفسي التفكير في المستقبل وهمومه، فقد كنت أمل خطوة إلى الأمام فإذا أنا أرجع خطوة إلى الوراء.

واكتشف صاحب المؤسسة تلاعب حسن بأمواله، وزيادته في الأسعار، واختلاسه جزءا من ذلك المال، وأخذ العمولات لنفسه، فصرفه من العمل، وأسند إلي مهمة شراء حاجات المؤسسة، إلى جانب كوني مديرا للمبيعات، فزادت مسؤولياتي، وأحسست بمزيد من الإرهاق المعنوي والمادي.

كنت قبل ذلك أعيش امتحانا واحدا، وهو امتحان الأمانة في البيع وإعطاء العمل حقه من الرعاية والأمانة، وأصبحت الآن أعيش امتحانا آخر أشد وأصعب وهو امتحان الأمانة في الشراء.

وزادت المناقشات والأحاديث والتعليمات كلما جلسنا لتناول طعام الغداء أو شرب الشاي، فقد أصبح تخفيض الرواتب عنصرا مؤيدا لأولئك الذين يقولون بجواز أخذ العمولات، بل طرح فكر جديد في تعليل أخذ العمولات، وهو أن تخفيض الرواتب أمر قهري، فرضه صاحب العمل على العامل، مستغلا حاجته للعمل فهو يعلم أنه محتاج للعمل، وأنه غادر

أيمكن أن أصنع هذا وأنا الذي أمضي الساعات مناقشا ومبيناً أن هذا المال ليس من حقي.. ووضعت يدي على رأسي ثم مددتهم إلى عيني وبدأت أفركهما.. أنا في حقيقة أم في خيال، يا الله ماذا جرى؟ كيف فعلت هذا؟ كان يجب ألا أضعف منذ أول لحظة، بل كان يجب أن أرفض المال وأعتذر عنه.. والآن ماذا أصنع به أعود إلى الرجل وأعيده إليه؟ كيف.. ماذا سأقول له.. هذا غير معقول.

وصلت إلى المؤسسة وأنا شارد الذهن مشيت التفكير، وأوقفت السيارة أمام باب المؤسسة، ولم أستطع النزول من السيارة، كنت بحاجة إلى هدوء في أعصابي، وتركيز في أفكاري، ولم أكن أدري ماذا يجب أن أصنع.. وجاء العامل من داخل المؤسسة، وانحنى على نافذة السيارة وقال: خير يا أستاذ هل هناك شيء؟ قلت: لا.. ولكن أنزل البضاعة. ودخلت المؤسسة وجلست خلف المنضدة، كنت أحس كأنني أحمل قنبلة في جيبتي تكاد تنفجر ما بين لحظة وأخرى، وقدم أحمد مسلماً فرددت سلامه بفتور وأطرقت في الأرض.. وتبادر إلى ذهني خاطر يقول لا ريب أن أحمد يعرف ما صنعت، ويعلم بأمر المال، وحضر الآن ليس للسلام علي ولكن ليقول لي: لقد سقطت يا أستاذ عند أول امتحان.. إنه سيسخر مني وسيهزأ من حديثي السابق عن الأمانة، وسيقول لي: ما هذا يا أستاذ؟ أهذه هي حججك؟ تحرمها على غيرك وتستحلها لنفسك.. ليس عيباً عليك؟ وحركت رأسي من غير أن أشعر وصحت: لا.. لا.. وقال أحمد: لا ماذا يا أستاذ؟ وانتبهت فقلت: لا تتركوا البضاعة مربوطة بل فكوها وضعوها في مكانها.

مددت يدي إلى جيبتي وتحسست المال.. وظننت أن أحمد يراه بعينه، ويعلم كم هو، مع أنني ما عدته ولا عرفت مقداره.. وقلت لنفسني: هل جئت يا رجل، لقد كنت وحدك، وما كان معك أحد، وحين أخذت المال لم يكن هناك أحد، فمن أين سيعرف أحمد بأمر المال.. الهدأ قليلاً وفكر ولا تتصرف برعونة.

حاولت عبثاً تركيز أفكاري.. ولكنني لم أستطع، كنت مضطرباً، فهذه أول مرة في حياتي أمر بمثل هذا الامتحان وما كنت قادراً على الانحياز إلى فكرة دون أخرى.. ومددت يدي إلى جيبتي، أريد أن أخرج المال، وأضعه في صندوق المؤسسة، وأستريح.. لكن يدي جمدت في جيبتي، وجاء الشيطان يقول لي: اصبر ولا تتسرع.. لا بد لك من أن تصل إلى حجة وراي.. ثم تصرف.. ماذا لو وضعت هذا المال في صندوق المؤسسة واتضح بعد ذلك أنه من حقك؟ إنك تكون بذلك قد خسرت المال، ولن تستطيع إخراجها من صندوقها.. وأحسست أنني كنت أضعف شيئاً فشيئاً أمام إغراء المال، وأني كنت أود أن أجد حجة لأحتفظ بالمال ولو كانت ضعيفة.

ودخل زبون فأنصرفت إليه مليياً حاجاته، وشغلت عن موضوع المال، وجاء زبون ثان وثالث.. وهكذا حتى حان وقت إغلاق المؤسسة، والانصراف إلى تناول طعام الغداء، والاستراحة بعض الوقت، فالحر شديد والراحة ضرورية.

تركت المؤسسة إلى البيت، ودماعي تضح فيه الحسج والبراهين والأفكار والأقوال دونما قرار أكيد ثابت.. لقد دخلت دوامة النقاش، فكاد يضيع الحق ويختلط الخطأ بالصواب، مع أنني لو بقيت لإحساسي الداخلي لجزمت مباشرة أن ما صنعت كان خطأ، وأن هذا المال يجب أن يعود إلى صندوق المؤسسة، فتحت الباب وولجت الدار وكانت مفاجأة مرعبة، كانت زوجتي قرب الباب والدماء تسيل من وجهها ويديها.. كان

منظرها مثيراً للخوف والدهشة واضطربت وقلت متلهفاً: خير إن شاء الله.. ماذا جرى ولماذا تسيل الدماء منك.. خبريني؟

قالت: لا تخف الأمر بسيط.. كنت أهين مادة الطعام وأردت أن أفتح زجاجة الشراب الغازية، فاستعصت علي، ويظهر أن كمية الغاز فيها كانت زائدة على الحد اللازم فلما ضغطت عليها أريد خلع ساداتها انفجرت، وتحطمت. وتطاير الزجاج في جسمي كما ترى.

أسرعت بزوجتي إلى المستشفى وأنا أسأل الله أن يكون الأمر بسيطاً وألا يكون هناك خطر عليها، وتلقفتها غرفة الإسعاف، وتداركها ثلاثة من الأطباء فحقنوها منوماً، ثم راحوا يستخرجون قطع الزجاج واحدة إثر أخرى..

وقفت مضطرباً متضرعاً إلى الله أن يرحم زوجتي بلطفه، ونسيت مال المؤسسة وما أورتني من اضطراب، وخرج أحد الأطباء من غرفة الإسعاف فأسرعت نحوه متسائلاً فقال: لا تخف الأمر بسيط، وقد انتهينا وما هي إلا نصف ساعة وتصحو زوجتك. لقد كان هناك لطف إلهي عظيم، إذ لم تدخل قطعة زجاج في عينيها.. إذن كانت ستفقد بصرها.

حين أردت العودة بزوجتي إلى الدار كان علي أن أدفع أتعاب المستشفى، وأمسكت بقائمة الأتعاب، وتذكرت أنني لم أحضر معي مالا زائداً فقد شغلتنى العجلة عن ذلك.. ولكن.. لا.. هناك المال الذي قدمه إلي الرجل.. وأدخلت يدي في جيبتي وأخرجت المال كما لفه الرجل حين أعطاني إياه وفككته وعدته..

يا الله.. هل هذا معقول.. أنا في حقيقة أم في حلم.. لقد كان المال مساوياً تماماً للمبلغ المطلوب في قائمة المستشفى ليس فيه قرش زيادة، ومددت يدي بالمبلغ إلى موظف المحاسبة بينما كانت يدي الأخرى تنساب على خدي تسح دموعاً كانت تشق طريقها نحو الأرض.

وحين ركبنا السيارة مع زوجتي عائداً إلى الدار لاحظت زوجتي أنني كنت أتمتع وأرفع برأسني نحو السماء والدموع تسيل على وجنتي، وقالت: أألى هذا الحد تحبني وتخاف علي.. حتى أنك رحت تبكي؟!

لم أجيبها فقد كنت مشغولاً عنها، لقد كنت أبتهل إلى الله أن يسامحني وأن يغفر لي والدموع تنساب من عيني بلا إرادة، وأنا أعاهد الله على عدم العودة لمثل هذا العمل ما حييت ولن أخذ أية عمولة لنفسني.. فذاك مال حرام والله قد أعطاني درسا لن أنساه ما حييت..

حين رجعت إلى المؤسسة بعد الظهر متأخراً، لقيت أحمد واقفاً على بابها، فسلمت عليه وأنا مشرق النفس منبسط الأسارير ثم قلت: يا أحمد استفت قلبك ولو أفتاك المفتون فالإثم ما حاك في الصدر، فاستبرئ لنفسك وعرضك ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ونظر أحمد إلي متعجباً.. ولم يفهم..

أما أنا فقد كنت فاهماً لكل كلمة.. وكنت عارفاً طريقي فقد اتجهت إلى الصندوق الحديدي وفتحته ثم مددت يدي إلى جيبتي وأخرجت مبلغاً من المال يساوي ما أعطاني الرجل من عمولة ثم دسسته في الصندوق.. وأمسكت بالقلم لأسجل على دفتر.. عمولة على ثمن البضاعة تحذف من المبلغ المدفوع.

والقيت القلم من يدي.. وشعرت أنني قد أقيت الإثم والحرام من يدي، وأني عدت نظيفاً كما بدأت.. لست في حاجة إلى من يقنعني أو يناقشني.. بأن العمولة من حق صاحب العمل.. والله قد أقنعني.

